دكتور يوسف القرضاوي

الجويني.. إمام الحرمين

بين المؤرخين: الذهبي.. والسبكي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية. عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

obeikandl.com

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م

حقوق الطبع محفوظة

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر) . غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه على أي أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية ، أو ميكانيكية ، أو نقله بأي وسيلة أخرى ، أو تصويره ، أو تسجيله على أي نحو ، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر .

All rights reserved to Wahbah Publisher. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٤٨٢٧٨٥١

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى، محمد وآله وصحبه أئمة الهدى، ومن بهم اقتدى فاهتدى.

أما بعـــد . . .

فإن أمتنا أمة غنية بأعلامها المتميزين، وشخصياتها الفذة، التى كان لها أثرها فى شتى جوانب الحياة، علمية وعملية، وروحية ومادية، ولا ريب أن التاريخ لهذه الشخصيات المؤثرة فى مجال الدين والدنيا، هو جزء مهم من التاريخ العام لهذه الأمة، فليس التاريخ هو تاريخ الدول والممالك فحسب، ولا تاريخ الملوك والأمراء رجال الملك والسياسة فقط، كما يتصور الكثيرون أو يصورون. بل تاريخ الأفراد والأفذاذ أيضا، الذين ماتوا ولم تمت آثارهم، وقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة

obeikandi.com

وأمثالهم فى القلوب موجودة.

وقال الشاعر:

قد مات قوم، وما ماتت مكارمهم

وعاش قوم وهم فى الناس أموات!

ولقد عنيت أمتنا بتاريخ هؤلاء الأموات الأحياء عناية بالغة، فعرفت كتب التراجم والطبقات، لمختلف الأصناف والفئات: من الفقهاء والأصوليين، والحفاظ والمحدثين، والقراء والمفسرين، والنظار والمتكلمين، والزهاد والمتصوفين، والحكماء والمتفلسفين، والنحويين واللغويين، والشعراء والأدباء والخلفاء والأمراء، والكتاب والوزراء، والفلكيين والأطباء، والفيزيائيين والرياضيين، والكيمائيين والجغرافيين وغيرهم من الفئات والأصناف.

بل كثيرا ما تنوعت كل فئة من هذه إلى طبقات، مثل الفقهاء، فهناك لكل مذهب طبقات مثل الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة وغيرهم. وهناك من يؤرخ لأهل قرن معين كالمائة السابعة أو الثامنة .. إلخ.

وهناك من كتب كتابا فى سيرة علَم واحد، كمن

صنف فى سيرة عمر بن الخطاب، أو عمر بن عبد العزيز، أو الحسن البصرى، أو أبى حنيفة، أو مالك، أو الشافعى، أو ابن حنبل، أو ابن المبارك أو البخارى.

وهناك من يجمع فى كتابه أعلاما من كل التخصصات، وكل الطبقات.

ويلاحظ الدارس لتراثنا العريض: أن كثرة الأعلام والأعيان البارزين فى تاريخنا، ينبئ بخصوبة هذه الأمة، وأن أرحامها ولادة للنوابغ.

ومن نظر فى القرن الخامس وحده وجد فيه عددا هائلا من الأعلام، كما نرى ذلك فى كتاب مثل (أعلام النبلاء) للذهبى، فقد ترجم لأعلام القرن الخامس، فكانوا ثمانية وتسعين وثمانمائة (٨٩٨) فى الأجزاء: ١٧، ١٨، ١٩. وهم الذين أفردهم بالترجمة، وقد ذكر فى أثناء ترجمة هؤلاء أعلاماً آخرين كثيرين، أشار إليهم إشارة، ولم يفرد لهم ترجمة.

وعند ابن العماد الحنبلى فى كتاب (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) عدد أكبر مما ذكره الذهبى بكثير.

وهذا رغم ما كانت تعانى منه الأمة من فتن وأزمات

فى الناحية السياسية وغيرها، مثل حكم العبيديين (المعروفين باسم الفاطميين) فى المغرب ومصر، وما لهم من شذوذات وانحرافات كبيرة عن العقيدة الإسلامية، وحكم بنى بويه وظهور الباطنية والقرامطة فى المشرق وبغداد، مما مهد لحروب الفرنجة، التى عرفت بعد ذلك باسم الحروب الصليبية.

برغم ذلك ظلت الأمة تنجب، والمدارس العلمية تخرّج، والقافلة تسير.

أقول هذا بمناسبة الحديث عن إمام الحرمين أبى المعالى عبد الملك بن عبد الله الجوينى (٤١٩ – ٤٧٨ هـ) فى الصفحات التالية.

ولا بد لمن يؤرخ لشخصية علمية لها وزنها وقدرها، أن يرجع إلى ترجمتها فى كتب التراجم والطبقات، ليتعرف عليها عن كثب، عن طريق قراءة سيرتها ومسيرتها، وشيوخها وتلاميذها، وما أثر فيها من أحداث، وما عاصرت من شجون، وما أثر عنها من مواقف، كما يتعرف عليها من خلال آثارها العلمية المعبرة عن وجهتها وأفكارها.

وإمام الحرمين الذى نحتفى اليوم به فى جامعة قطر – بمناسبة مرور ألف عام على مولده – قد عنى به أهل التراجم، لطول باعه فى العلم، وسعة المساحة التى أثر فيها، وكثرة الذين استفادوا منه، وتميز شخصيته فى عصره وما بعد عصره، فى علوم جمعت بين العقل والنقل. مثل علم الكلام. وأصول الفقه، والفقه، والخلاف.

وإذا كان أبو الطيب المتنبى قد قيل عنه: رجل ملأ الدنيا وشغل الناس، فكذلك إمام الحرمين، بيد أن المتنبى شغلهم فى ميدان الشعر والأدب، وإمام الحرمين شغلهم فى ميدان العلم والفكر.

ولقد أحال محقق (سير أعلام النبلاء) للذهبى فى هامش ترجمة إمام الحرمين على أكثر من ثلاثين مرجعا، تحدثت عن الرجل. منها المسهب، ومنها المقتصد، ومنها المقتصر.

ولكنى فى هذه العجالة سأكتفى بالتركيز على ترجمتين، أعتقد أنهما متميزتان لهذا الإمام، وإنما اخترتهما لتباينهما فى الاتجاه والموقف من هذا الإمام الكبير.

أما الأولى: فهى ترجمة (مؤرخ الإسلام) الحافظ

شمس الدين الذهبى (ت ٧٤٨ هـ) صاحب التصانيف والموسوعات فى علم الرجال والتاريخ. وذلك فى كتابه (سير أعلام النبلاء) [١].

والثانية: ترجمة العلامة المتكلم الفقيه الشافعى تاج الدين السبكى (ت ٧٧١ هـ) الذى علق بعنف على ترجمة الذهبى. وذلك فى كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) [٢].

وسأقارن بين الترجمتين بموضوعية وإنصاف ما استطعت، سائلا الله تعالى أن يوفقنا لخدمة ديننا، والرقى بأمتنا، والوفاء بحق علمائنا وأعلامنا، وأن يغفر لنا زللنا، ويرزقنا الإخلاص فى قولنا وعملنا، وأن يتقبلنا ويقبل منا. إنه سميع مجيب.

الدوحة فى ذى الحجة ١٤١٩ هـ — **الفقير إلى عفو ربه**

أبريل ١٩٩٩ م — **يوسف القرضاوى**

---

(١) تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى، ونشر مؤسسة الرسالة بيروت.

(٢) تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحى ونشر عيسى البابى الحلبى – القاهرة.

ترجمة إمام الحرمين
بين الحافظَين الذهبى والسُّبكى

ترجم كل من الإمامين: شمس الدين الذهبى (ت ٧٤٨ هـ) وتاج الدين السبكى (ت٧٧١ هـ) لإمام الحرمين.

الأول: فى كتابه الكبير (سير أعلام النبلاء) فى الجزء الثامن عشر منه.

والثانى: فى (طبقات الشافعية الكبرى) فى الجزء الخامس منه.

كلاهما أثنى على الإمام بما هو أهله، ولكن غلب على ترجمة السبكى المدح والثناء، وغلب على ترجمة الذهبى النقد البناء. وهذا ما جعل السبكى يشتبك فى معركة جدلية مع الذهبى، ويكتب فصلا ضافيا تحت عنوان (ذكر ما وقع من التخبيط فى كلام شيخنا الذهبى، والتحامل على هذا الإمام العظيم، فى أمر هذا الإمام الذى هو من أساطين هذه الملة المحمدية، نضرها الله)[1].

---

(١) أنظر: طبقات الشافعية الكبرى بتحقيق د. محمود محمد الطناحى، ود. عبد الفتاح محمد الحلو: (٥/١٨٧).

وسر هذا الاختلاف ما بين الذهبى والسبكى: أن لكل منهما زاوية ينظر منها غير زاوية الآخر. لأن لكتاب كل منهما هدفا غير هدف الآخر.

السبكى يترجم فى كتابه لأعلام الشافعية، مبينا فضائلهم، مشيدا بمحاسنهم، غير معنى بما لهم من هفوات أو هنَّات، إلا من باب الدفاع عنهم، والرد على خصومهم فى غالب الأمر.

والذهبى فى كتابه يترجم لأعلام الأمة، بمختلف مذاهبها، بل بمختلف فرقها، فى شتى العلوم والتخصصات، دينية وغير دينية، فترجم للمحدثين والفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمتصوفة، والزهاد وللأدباء والشعراء والفلاسفة والأطباء والنحويين واللغويين والخلفاء، والأمراء والولاة والوزراء، وأهل الغناء والموسيقى، وغيرهم من الفئات.

وهو يذكر للشخص ماله وما عليه ويغلب عليه – فيما رأيت – الإنصاف، حتى حين يترجم للمعتزلة وغيرهم من الطوائف الذين يراهم مبتدعة فى الدين. كما يهتم فى ترجمته بالجوانب التى تميز شخصية المترجم، وتبين ملامحه.

ترجمة الذهبى لإمام الحرمين

على ضوء هذا كانت ترجمة الذهبى لإمام الحرمين، بدأها بقوله: الإمام الكبير، شيخ الشافعية، إمام الحرمين، أبو المعالى، ضياء الدين .. صاحب التصانيف.

ونقل عن السمعانى قوله: كان أبو المعالى إمام الأئمة على الإطلاق، مجمعا على إمامته شرقا وغربا، لم تر العيون مثله .. إلى أن قال: درّس بنظامية نيسابور، واستقام الأمر، وبقى على ذلك ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع، مسلّما له المحراب والمنبر والخطبة والتدريس، ومجلس الوعظ يوم الجمعة، وظهرت تصانيفه، وحضر درسه الأكابر، والجمع العظيم من الطلبة، كان يقعد بين يديه نحو من ثلاثمائة، وتفقه به أئمة.

وذكر الذهبى نشأة إمام الحرمين وتكوينه العلمى وشيوخه، فى شتى علوم الإسلام والعربية.

كما ذكر شهادة كبار العلماء له، مثل قول أبى إسحاق الشيرازى: تمتعوا من هذا الإمام، فإنه نزهة هذا الزمان!.

وذكر تصانيفه فى الفقه والأصول والكلام والخلاف.

قال: وكان إذا أخذ فى علم الصوفية، وشرح الأحوال أبكى الحاضرين.

وكان يذكر فى اليوم دروسا، الدرس فى عدة أوراق، لا يتلعثم فى كلمة منها.

ثم قال: وصفه بهذا وأضعافه عبد الغافر بن إسماعيل (الفارسى).

ثم نقل ما ذكره أبو الحسن الباخرزى صاحب (دمية القصر) فى حقه: الفقه فقه الشافعى، والأدب أدب الأصمعى، وفى الوعظ الحسن: الحسن البصرى، وكيف ما هو فهو إمام كل إمام، والمستعلى بهمته على كل هام، والفائز بالظفر على إرغام كل ضرغام. إن تصدر للفقه، فالمزنى من مزنته، وإذا تكلم (من علم الكلام) فالأشعرى شعرة من وفرته [1]. أ. هـ.

---

(١) انظر: أعلام النبلاء: ١٨/٤٦٨ - ٤٧٧.

ولكن فى تضاعيف هذه الترجمة للإمام الجوينى ذكر الذهبى بعض ما نقله الحفاظ والمؤرخون عنه من مواقف وكلمات، لم تعجب السبكى، فشن الغارة من أجلها على شيخه الذهبى، لأنها تعبر عن تغير رأيه فى التأويل أو فى علم الكلام، أو موقفه من علم الحديث، ونحو ذلك، وسنعرض لها بعد.

obeikandl.com

ترجمة السبكى لإمام الحرمين

أما السبكى فقد ترجم لإمام الحرمين ترجمة مطولة استغرقت نحو ثمان وخمسين (٥٨) صفحة (من ١٦٥ إلى ٢٢٢) من الجزء الخامس من (طبقات الشافعية الكبرى) .

بدأ ترجمته بقوله : هو الإمام شيخ الإسلام البحر، الحبر المدقق المحقق، النظار الأصولى المتكلم، البليغ الفصيح الأديب، العلم المفرد، زينة المحققين، إمام الأئمة على الإطلاق، عُجما وعُربا، وصاحب الشهرة التى سارت السراة والحداة بها شرقا وغربا .

واستمر فى هذه المدائح إلى أن استشهد بقول النابغة :

وما أرى أحدا فى الناس يشبهه

وما أحاشى من الأقوام من أحد

ثم ذكر فصلا فى (حال ابتداء الإمام) تحدث فيه عن نشأته وصباه، وما ظهر عليه من مخايل النجابة، وأمارات

الفلاح، حتى كان والده يعجب به ويسر، وقد أخذ الفقه عن والده.

قال السبكى: ولا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالكلام والأصول والفقه، وأكثرهم تحقيقا، بل الكل من بحره يغترفون، وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيرا.

ونقل عن عبد الغافر الفارسى: أنه كان يصل الليل بالنهار فى التحصيل، ويبكر كل يوم - قبل الاشتغال بدرس نفسه - إلى مسجد أبى عبد الله الخبازى يقرأ عليه القرآن، ويقتبس من كل نوع من العلوم ما يمكنه، مع مواظبته على التدريس، وينفق ما ورثه وما كان يدخل له على المتفقهة، ويجتهد فى المناظرة ويواظب عليها، إلى أن ظهر التعصب بين الفريقين، واضطربت الأحوال والأمور.

وهناك اضطر إلى السفر، والخروج من البلد، فذهب مع المشايخ إلى بغداد، يلتقى بالأكابر من العلماء ويدارسهم ويناظرهم، حتى طار ذكره فى الأقطار.

ثم ذهب إلى الأرض المقدسة، وجاور بمكة أربع سنوات، وبهذا لقب (إمام الحرمين) ثم عاد إلى نيسابور بعد ولاية السلطان (ألب أرسلان)، ووزارة (نظام الملك)

له. وقد استقرت أمور الفريقين، وانقطع التعصب. فبنيت له (المدرسة النظامية) بنيسابور، وأقعد للتدريس فيها ... وبقى على ذلك قريبا من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع.

ثم ذكر السبكى فصلا آخر فى (ذكر شئ من ثناء أهل عصره عليه) مثل الإمام أبى إسحاق الشيرازى، وشيخ الإسلام أبى عثمان الصابونى، والحافظ أبى محمد الجرجانى، وقاضى القضاة أبى سعيد الطبرى، والفقيه الإمام غانم الموشيلى.

قال أبو إسحاق: تمتعوا بهذا الإمام فإنه نزهة هذا الزمان.

وقال له مرة: يا مفيد أهل الشرق والغرب، لقد استفاد من علمك الأولون والآخرون.

وقال له أخرى: أنت اليوم إمام الأئمة.

وقال الصابونى، وقد سمع كلام إمام الحرمين فى بعض المحافل: صرف الله المكاره عن هذا الإمام، فهو اليوم قرة عين الإسلام، والذاب عنه بحسن الكلام.

وقال الجرجانى: هو إمام عصره، ونسيج وحده، ونادرة دهره، وعديم المثل فى حفظه وبيانه ولسانه.

وقال أبو سعيد الطبرى، وقد قيل له: إنه لقب (إمام الحرمين): بل هو إمام خراسان والعراق، لفضله وتقدمه فى أنواع العلوم.

قال: ونقلت من خط ابن الصلاح: أنشد بعض من رأى إمام الحرمين:

لم تر عينى أحدا تحت أديم الفلك
مثل إمام الحرمـ ـين الندب عبد الملك

قال: وروى ابن السمعانى: أن إمام الحرمين ناظر فيلسوفًا فى مسألة (خلق القرآن) فقذف بالحق على باطله، ودمغه دمغا، ودحض شبهه دحضا، ووضح كلامه فى المسألة حتى اعترف الموافق والمخالف له بالغلبة.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى: لو ادعى إمام الحرمين اليوم النبوة، لاستغنى بكلامه هذا عن إظهار المعجزة!!

ثم ذكر فصلا آخر فى (ذكر كلام عبد الغافر الفارسى فيه) مع أن معظمه سبق ذكره، ولكنه أعاده قائلا: ولا

علينا أن نكرر بعض ما مضى ذكره.

وبعد ذلك أضاف فصلا فى (ذكر زيادات أُخَرْ فى ترجمة إمام الحرمين جمعناها من متفرقات الكتب). وأهم ما ذكره هنا، ما نقله عن ابن السمعانى بسنده عن الإمام أنه قال: لقد قرأت خمسين ألفا فى خمسين ألفا، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها، وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصت فى الذى نهى أهل الإسلام عنه، كل ذلك فى طلب الحق ...

وسنذكر هذه المقولة كاملة فى حديثنا عن مؤاخذات السبكى للذهبى.

ثم ذكر حكاية أخرى عن ابن السمعانى رواها بسنده عن الحافظ ابن طاهر، بنص رجوع إمام الحرمين عن علم الكلام، ثم قال: يشبه أن تكون هذه الحكاية مكذوبة ..

وسنعرض لذلك فيما بعد.

ثم جاء بعد ذلك فصل الاشتباك مع الذهبى.

ثم ذكر بعد ذلك مناظرات لإمام الحرمين، وفوائد ومسائل من علمه، بلغت نحو ثلاث عشرة صفحة.

مؤاخذات السبكى على الذهبى

توقف السبكى عند خمسة مقاطع فى ترجمة الذهبى لإمام الحرمين، هى:

١ – كلامه حول علم الله تعالى بالجزئيات.

٢ – سؤال الهمذانى، وجواب الإمام.

٣ – رجوعه عن تأويل الصفات، بل عن علم الكلام عامة.

٤ – مدى درايته بعلم الحديث.

٥ – موقف تلامذته بعد موته.

وسنلخص كلا منها بحديث مناسب.

١ – حول علم الله تعالى بالجزئيات

قال الذهبى فى هذه القضية:

قال المازرى فى (شرح البرهان) فى قوله – أى قول إمام الحرمين –: إن الله يعلم الكليات لا الجزئيات: (وددت لو محوتها بدمى!)[١].

---

(١) سير الأعلام: (١٨/ ٤٧٢).

obeikandl.com

وذلك لأنها تنافى ما اتفق عليه المسلمون أن الله يعلم الكليات والجزئيات جميعا، كما هو صريح آيات القرآن الوفيرة، التى لا تخفى على مسلم، ولهذا كفر علماء المسلمين - منذ عهد الغزالى - الفلاسفة بثلاثة أشياء أساسية، منها: إنكار العلم الإلهى بالجزئيات.

قال السبكى معلقا على الذهبى: ومن قبيح كلامه، قال: وقال المازرى .. إلى قوله: وددت لو محوتها بدمى. ونقل كلاما عن الذهبى لم يقله. هذا نصه. قلت (القائل الذهبى): (هذه لفظة ملعونة، قال ابن دحية: هى كلمة مكذبة للكتاب والسنة يكفر بها، هجره عليها جماعة. وحلف القشيرى لا يكلمه بسببها مدة، فجاور وتاب). انتهى [1].

قال السبكى:

ما أقبحه فصلاً مشتملاً على الكذب الصراح! وقلة الحق، مستحلاً على قائله بالجهل بالعلم والعلماء، وقد كان الذهبى لا يدرى «شرح البرهان» ولا هذه الصناعة، ولكنه

---

(١) الطبقات الكبرى: ٥/١٨٨.

يسمع خرافات من طلبة الحنابلة، فيعتقدها حقًا، ويودعها تصانيفه.

أمام قوله عن الإمام، قال: «إن الله يعلم الكليات لا الجزئيات» يقال له: ما أجرأك على الله! متى قال الإمام هذا؟ ولا خلاف بين أئمتنا فى تكفير من يعتقد هذه المقالة، وقد نص الإمام فى كتبه الكلامية بأسرها على كفر من ينكر العلم بالجزئيات، وإنما وقع فى «البرهان» فى أصول الفقه شئ استطرده القلم إليه، فهم منه المازرى، ثم أمرّ هذا، وذكر ما سنحكيه عنه، وسنجيب عن ذلك، ونعقد له فصلاً مستقلاً.

وأما قوله «هذه لفظة ملعونة» فنقول: لعن الله قائلها.

وأما قوله «قال ابن دحيه» إلى آخر ما حكاه عنه.

فنقول: هل يحتاج مثل هذه المقالة إلى كلام ابن دحية؟ ولو قرأ الرجل شيئًا من علم الكام لما احتاج إلى ذلك، فلا خلاف بين المسلمين فى تكفير منكرى العلم بالجزئيات، وهى إحدى المسائل التى كفرت بها الفلاسفة.

وأما قوله: «وحلف القشيرى لا يكلمه بسببها مدة» فمن نقل له ذلك؟ وفى أى كتاب رآه؟ وأقسم بالله يميناً بارة: إن هذه مختلقة على القشيرى، وقد كان القشيرى من أكثر الخلق تعظيماً للإمام، وقدمنا عنه قوله فى حقه: لو ادعى النبوة لأغناه كلامه عن إظهار المعجزة!.

وابن دحية لا تقبل روايته؛ فإنه متهم بالوضع على رسول الله ﷺ، فما ظنك بالوضع على غيره؟ والذهبى نفسه معترف بأنه ضعيف، وقد بالغ فى ترجمته، فى الإزراء عليه، وتقرير أنه كذاب، ونقل تضعيفه عن الحافظ أيضاً، وعن ابن نقطة، وغير واحد. وأخبر الناس به الحافظ ابن النجار، اجتمع به وجالسه، وقال فى ترجمته: رأيت الناس مجمعين على كذبه وضعفه، قال: وكانت أمارات ذلك لائحة عليه. وأطال فى ذلك.

وبالجملة لا أعرف محدثاً إلا وقد ضعف ابن دحية، وكذبه، لا الذهبى، ولا غيره، وكلهم يصفه بالوقيعة فى الأئمة، والاختلاف عليهم، وكفى بذلك.

وأما قوله «ونُفى بسببها مدة مجاوراً وتاب» فمن البهت، لم ينف الإمام أحد، وإنما هو خرج ومعه القشيرى

وخلق، فى واقعة الكندرى التى حكيتها فى ترجمة الأشعرى، وفى ترجمة أبى سهل بن الموفق، وهى واقعة مشهورة خرج بسببها الإمام والقشيرى، والحافظ البيهقى وخلق، كان سببها: أن الكندرى أمر بلعن الأشعرى على المنابر، ليس غير ذلك. انتهى.

وقد قرأنا ما كتبه الذهبى فى (النبلاء) فلم نجد فيه هذه العبارات. لم يقل (هذه لفظة ملعونة) ولم ينقل شيئاً عن ابن دحية فى ذلك، كل ما قاله: (هذه هفوة اعتزال. هجر أبو المعالى بسببها. وحلف أبو القاسم القشيرى لا يكلمه، ونفى بسببها، فجاور وتعبد، وتاب - ولله الحمد - منها، كما أنه فى الآخر رجح مذهب السلف وأقره)[1]. انتهى.

فلا أدرى هل هناك نسخة أخرى نقل منها السبكى؟ يحتمل. ويكون ما فى النسخة المطبوعة المحققة هو آخر ما صاغه الذهبى فى الفضية، إن لم يكن ذلك الكلام مدسوساً عليه، ففرق بين عبارة (هذه هفوة اعتزال) وعبارة

---

(١) أعلام النبلاء: ١٨ / ٤٧٢.

(هذه لفظة ملعونة) والنقل عن ابن دحية أن قائلها يكفر بها.

وأنا مع السبكى فى أن إمام الحرمين لم يُنف من أجل ذلك، وإنما خرج ومن معه، من أجل الفتنة المذكورة.

ونلاحظ أن الذهبى هنا معتمد على المازرى، فالذهبى ليس من علماء الكلام، فهو لا يحسن هذا العلم ولا يواليه، فاعتمد على متكلم إمام، وهو فى الوقت ذاته أشعرى، بل أشعرى متعصب، كما يقول السبكى نفسه، وهو المازرى.

ثم هو حاول أن يخفف من صدمة هذا القول، فذكر احتمالا آخر فيه حين قال: وقيل: لم يقل بهذه المسألة تصريحا، بل ألزم بها. لأنه قال بمسألة الاسترسال فيما ليس بمتناه من نعيم أهل الجنة. فالله أعلم.

ومن المعلوم: أن القول الصحيح أن العالم لا يؤاخذ بلازم مذهبه، فلازم المذهب ليس بمذهب، وخصوصا إذا وجد ما يعارضه من مسلَّمات المذهب.

ثم ذكر فى النهاية: أنه ندم على هذه الكلمة وتاب

– لله الحمد – منها، بل تاب من علم الكلام كله، كما سنذكر بعد [1].

دفاع السبكى عن الإمام:

قال السبكى: (ثم اعلم أن لهذا الإمام من الحقوق فى الإسلام، والمناضلة فى الكلام عن الدين الحنيف ما لا يخفى على ذى تحصيل، وقد فهم عنه المازرى إنكار العلم بالجزئيات، وأفرط فى التغليظ عليه، وأشبع القول فى تقرير إحاطة العلم القديم بالجزئيات، ولا حاجة به إليه، فإن أحدا لم ينازعه فيه، وإنما هو تصور أن الإمام ينازعه فيه.

ومعاذ الله أن يكون ذلك.

ولقد سمعت الشيخ الإمام (يعنى والده) رحمه الله غير مرة يقول: لم يفهم المازرى كلام الإمام، ولم أسمع منه زيادة على هذا، وقلت أنا له رحمه الله إذ ذاك: لو كان الإمام على هذه العقيدة لم يحتج إلى أن يدأب نفسه فى « تصنيف النهاية » فى الفقه، وفيه جزئيات لا تنحصر، (والعلم) غير متعلق على هذا التقدير عنده بها.

---

(١) المرجع نفسه.

وقلت له أيضًا: هذا كتاب «الشامل» للإمام فى مجلدات عدة فى علم الكلام، والمسألة المذكورة حقها أن تقرر فيه، لا فى «البرهان» فلم لا يكشف عن عقيدته فيه؟ فأعجبه ذلك.

وأقول الآن، قبل الخوض فى كلام الإمام المازرى: لقد فحصت عن كلمات هذا الإمام فى كتبه الكلامية، فوجدت إحاطة علم الله تعالى عنده بالجزئيات أمرًا مفروغًا منه، وأصلاً مقررًا يكفر من خالفه فيه. أ،هـ. وذكر مواضع من كلامه تدل على ذلك من كتابيه (الشامل) و(الإرشاد).

وكذلك فى «البرهان» فى «باب النسخ» صرح بأن الله تعالى يعلم على سبيل التفصيل كل شئ.

إذا عرفت ذلك، فأنا على قطع بأنه معترف بإحاطة العلم بالجزئيات.

فإن قلت: وما بيان هذا الكلام الواقع فى «البرهان»؟

قلت: «العالم من يدعو الواضح واضحًا، والمشكل مشكلاً، وهو كلام مشكل، بحيث أبهم أمره على المازرى، مع فرط ذكائه وتضلعه بعلوم الشريعة، وأنا أحكيه ثم

أقرره، وأبين لك أن القوم لم يفهموا إيراد الإمام، وأن كلامه المشار إليه مبنى على إحاطة العلم القديم بالجزئيات، فكيف يؤخذ منه خلافه؟

قال السبكى:

(والذى أراه لنفسى ولمن أحبه الاقتصار على اعتقاد أن علم الله تعالى محيط بالكليات والجزئيات، جليلها وحقيرها، وتكفير من يخالف فى واحد من الفصلين، واعتقاد أن هذا الإمام برئ من المخالفة فى واحد منهما، بدليل تصريحه فى كتبه الكلامية بذلك، وأن واحداً من الأشاعرة لم ينقل هذا عنه، مع تتبعهم لكلامه، ومع أن تلامذته وتصانيفه ملأت الدنيا، ولم يعرف أن أحداً عزا ذلك إليه، وهذا برهان قاطع على كذب من تفرد بنقل ذلك عنه؛ فإنه لو كان صحيحاً لتوفرت الدواعى على نقله، ثم إذا عرض هذا الكلام، نقول: هذا مشكل نضرب عنه صفحاً، مع اعتقاد أن ما فهم منه من أن العلم القديم لا يحيط بالجزئيات ليس بصحيح)[1].

وأعتقد أن هذا الكلام يكفى فى الدفاع عن إمام

---

(١) الطبقات الكبرى: ٥/١٩٢ - ١٩٦.

الحرمين، وإن كان السبكى قد استرسل وأفاض فى الدفاع عنه - على طريقة المتكلمين - بما لا حاجة لنا إليه.

٢ - سؤال الهمذانى وجواب الإمام:

ومن أبرز ما اعترض عليه السبكى هنا ما ذكره الذهبى وكرره مرتين فى ترجمته من سؤال المحدِّث أبى جعفر الهمذانى لإمام الحرمين، وتحيره فى الإجابة عنه!

نقل ذلك الذهبى عن الحافظ محمد بن طاهر قال: حضر المحدث أبو جعفر الهمذانى، مجلس وعظ أبى المعالى، فقال: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه، فقال أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التى نجدها: ما قال عارف قط: يا الله! إلا وجد ضرورة تطلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا؟! أو قال: فهل عندك دواء لدفع هذه الضرورة التى نجدها؟! فقال: يا حبيبى ما ثم إلا الحيرة! ولطم على رأسه، ونزل. وبقى وقت عجيب .. وقال فيما بعد: حيرنى الهمذانى [١]!

---

(١) سير الأعلام: ١٨ / ٤٧٤، ٤٧٥.

وقد أعاد الذهبى هذه القصة بإسناد آخر وبصيغة مقاربة، قال: أخبرنا يحيى بن أبى منصور الفقيه فى كتابه، عن عبد القادر الحافظ، أخبرنا أبو العلاء الهمذانى، أخبرنى أبو جعفر الحافظ سمعت أبا المعالى، وسئل عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فقال: كان الله ولا عرش. وجعل يتخبط، فقلت: هل عندك للضرورات من حيلة؟ فقال: ما معنى هذه الإشارة؟ قلت: ما قال عارف قط: يا رباه! إلا قبل أن يتحرك لسانه، قام من باطنه قصد لا يلتفت يمنة ولا يسرة، يقصد الفوق، فهل لهذا القصد الضرورى عندك من حيلة؛ فتنبئنا نتخلص من الفوق والتحت؟ وبكيت وبكى الخلق، فضرب بكمه على السرير، وصاح بالحيرة، ومزق ما كان عليه، وصارت قيامة فى المسجد، ونزل يقول: يا حبيبى! الحيرة الحبيرة، والدهشة الدهشة[1]!!

قال السبكى:

قلت: قد تكلف لهذه الحكاية وأستدها بإجازة على

---

(١) المصدر السابق: ١٨/ ٤٧٧.

إجازة، مع ما فى إسنادها ممن لا يخفى محاطّه على الأشعرى، وعدم معرفته بعلم الكلام.

ثم أقول: يالله ويا للمسلمين! أيقال عن الإمام إنه يتخبط عند سؤال سأله إياه هذا المحدِّث، وهو أستاذ المناظرين، وعلم المتكلمين؟ أوَ كان الإمام عاجزاً عن أن يقول له: كذبت يا ملعون، فإن العارف لا يحدث نفسه بفوقية الجسمية، ولا يحدد ذلك إلا جاهل يعتقد الجهة!.

بل نقول: لا يقول عارف: يا رباه، إلا وقد غابت عنه الجهات، ولو كانت جهة فوق مطلوبة لما منع المصلى من النظر إليها، وشدد عليه فى الوعيد عليها.

وأما قوله «صاح بالحيرة» وكان يقول: «حيرنى الهمذانى» فكذب ممن لا يستحى، وليت شعرى! أى شبهة أوردها، وأى دليل اعترضه حتى يقول: حيرنى الهمذانى؟.

ثم أقول: إن كان الإمام متحيراً لا يدرى ما يعتقد، فواهاً على أئمة المسلمين من سنة ثمان وسبعين وأربعمائة إلى اليوم؛ فإن الأرض لم تخرج من لدن عهده أعرف منه

بالله ولا أعرف منه! فيالله ماذا يكون حال الذهبى وأمثاله إذا كان مثل الإمام متحيراً؟ إن هذا لخزى عظيم، ثم ليت شعرى! من أبو جعفر الهمذانى فى أئمة النظر والكلام؟ ومن هو من ذوى التحقيق من علماء المسلمين؟!.

ثم أعاد الذهبى الحكاية عن محمد بن طاهر، عن أبى جعفر، وكلاهما لا يقبل نقله، وزاد فيها أن الإمام صار يقول: يا حبيبى ما ثم إلا الحيرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، لقد ابتلى المسلمون من هؤلاء الجهلة بمصيبة لا عزاء بها (١). انتهى.

وأقول: إن الذهبى رجل مؤرخ وهو يعتمد - كسائر الحفاظ والمؤرخين المسلمين - على الرواية بالأسانيد، فهو لا يلقى الكلام على عواهنه، وإنما يسنده إلى أهله ممن عاصر أو شاهد أو سمع.

وظنى أن الحكاية لا بد أن يكون لها أصل، ولكن ربما وقعت المبالغة فى وصف التفاصيل.

إذ يصعب على المرء أن يصدق أن مثل إمام الحرمين النظار المتكلم المناظر البليغ المتمكن، الذى لم يكن يتلعثم

---

(١) الطبقات الكبرى: ٥/ ١٩٠، ١٩١.

فى درس أو مناظرة: يتخبط أمام سؤال من معارض، أو يلطم على رأسه، أو يصيح بالحيرة!.

وقد كان يمكن أن يقول للسائل: أنا أنازع فيما تقول، إن ما تدعوه بأنه ضرورة، ليس ضرورة، وإنما هو عادة، يتلقنها الأبناء عن الآباء، والخلف عن السلف، وربما توجد أمم لا تفعل ذلك.

وقد يمكن أن يقول: إن التوجه إلى السماء أو إلى العلو، لا يعنى أن الله فى السماء بمعنى أنه محصور فيها، ولكن الخالق الأعظم للكون، لا يمكن أن يوصف إلا بأنه الأعلى، وأنه فوق الكون، وأن الكون فى جهة السفل والتحت. وهذا ما نقل عن والده الإمام أبى محمد الجوينى فى رسالة (إثبات الاستواء والفوقية) المنشورة فى (مجموعة الرسائل المنيرية) (ج١: ١٧٤ - ١٨٧) وفيها يثبت لله تعالى الاستواء والفوقية، كما يليق بكماله، وكما ينبغى لجلال وجهه، وعظيم سلطانه. وهو ما اقتبسه منه من بعده، ووضحه العلامة الواسطى الشافعى الصوفى الذى كان يسميه ابن تيمية (جنيد زمانه) وكان معاصراً له (ت٧١١ هـ) وذلك فى رسالة (النصيحة) ورضيه

السلفيون، ونقل العلامة السفارينى عنه ذلك فى شرح عقيدته، والسيد رشيد رضا فى تفسير المنار.

على أن الرجل - إمام الحرمين - قد ترقى عن ذلك كله، وارتضى مذهب السلف منهاجا له، كما يتجلى ذلك فى الفقرة التالية، ولله الفضل والمنة.

٣ - رجوعه عن التأويل وعلم الكلام:

لعل أظهر ما اشتهر به إمام الحرمين عند الناس هو: علم الكلام، فهو أبرز أشعرى بعد الأشعرى، بل هو الذى وصف بأنه (إذا تكلم فالأشعرى شعرة من وفرته!) وهو المؤسس الثانى للمذهب الأشعرى.

ومن هنا كان أول ما نشر من كتبه: الكتب الكلامية، مثل (الشامل) و(الإرشاد) و(النظامية) و(اللمع).

وتأخر نشر كتابه (البرهان) فى أصول الفقه و(الغياثى) فى السياسة الشرعية عنها، أما كتابه الذى توفر عليه فى أواخر سنى عمره، وهو (نهاية المطلب فى دراية المذهب) فلم ير النور بعد، ويوشك أن يكون،

بفضل الله تعالى، ثم بجهد أخينا الدكتور عبد العظيم الديب، شكر الله سعيه، وبارك جهده.

كان إمام الحرمين أشعريًا قحا فى أول أمره، محاميا عن الأشعرية، كما عرفت عند الناس، لا كما جاء عن الأشعرى فى عدد من كتبه، ولا سيما (الإبانة فى أصول الديانة) التى حققتها الدكتورة فوقيه محمود و(رسالة أهل الثغر) التى حققها أخونا الدكتور محمد الجليْنْد.

وقد ذكر الإمام الذهبى موقفا لإمام الحرمين فى الدفاع عن موقف الأشعرية فى قضية (أفعال العباد) ومن المعلوم للدارسين أن موقف الأشعرى فى ذلك من أضعف المواقف، حتى ضرب به المثل فى الخفاء، فقيل: أخفى من كسب الأشعرى! وقيل: ثلاثة من مجالات الكلام: طفرة النظام، وكسب الأشعرى، وأحوال أبى هاشم.

والعجيب أن السبكى لم يعقب على هذا الموقف، مع أنه لم يدع شيئًا من هذا اللون مما ذكره الذهبى إلا تعقبه بعنف، بل بتجريح!. والحق أن من الفضائل التى تميز بها إمام الحرمين، وتبدو لكل من درس حياته وتراثه بلا تعصب له ولا عليه: الإخلاص فى طلب الحقيقة، عن طريق العقل

الناقد، والشرع الضابط، فإذا كشفت له الحقيقة قناعها، ومدت له شعاعها، بادر إلى الإيمان بها واعتناقها، والإعلان عنها، بشجاعة لا نظير لها، وإن كانت مخالفة لما عليه الجمهور، أو ما عليه المذهب، وما مضى عليه دهراً من حياته، وقضى سنين عدداً وهو يدرسه ويصنّف فيه، ويذود عنه، ويحث على اتباعه.

وهذا واضح فى مذهبه (العقدى) أكثر منه فى مذهبه الفقهى. فمن المعروف والمشهور: أن إمام الحرمين كان من كبار متكلمى الأشاعرة، المؤولين لآيات الصفات وأحاديثها، المدافعين عن التأويل. وقد برز فى (علم الكلام) واشتهر به، وصنف فيه التصانيف التى سارت بذكرها الركبان، مثل (الشامل) و(الإرشاد) و(اللمع) و(النظامية) وغيرها، وأخذ عنه هذا العلم كثيرون من تلاميذه النوابغ. وكان يتكلف فى تأويله والدفاع عن مذهبه الأشعرى إلى حد الاعتساف أحياناً، الذى لا يرضاه المنصفون. وهذا شأن البشر.

وقد ذكر مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبى فى (سير الأعلام) ما جرى بينه وبين أبى القاسم بن بَرهان من مناظرة

فى (أفعال العباد) . وهو ما نقله عن العلامة الحنبلى ابن عقيل فى (فنونه) قال : قال عميد المُلك : قدم أبو المعالى ، فكلم أبا القاسم بن برهان فى العباد : هل لهم أفعال ؟ فقال أبو المعالى : إن وجدت آية نقتضى ذا ، فالحجة لك فتلا : ﴿ **وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٦٣] ومد بها صوته وكرر : ﴿ **هُمْ لَهَا عَامِلُونَ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [التوبة : ٤٢] . أى كانوا مستطيعين ، فأخذ أبو المعالى يستروح إلى التأويل . فقال (أى ابن برهان) : والله إنك بارد . تتأول صريح كلام الله ، لتصحح بتأويلك كلام الأشعرى !! وأكلّه ابن برهان (أى أعياه) بالحجة ، فبهت [١] .

هكذا كان أبو المعالى إمام الحرمين ، دهرًا من حياته ، ولا غرو أن اعتبره بعض الباحثين المؤسس الثانى للمذهب الأشعرى ، وكتب أستاذنا الشيخ على جبر فى كلية أصول الدين رسالة الأستاذية له عن (إمام الحرمين بانى الأشعرية

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ١٨ / ٤٦٩ .

الحديثة) وإن لم نرها مطبوعة . . ولكن الله شرح صدره للحق، فوجدناه فى أواخر حياته قد غير نهجه، ورجع عن طريق التأويل – طريق الخلف – إلى طريق السلف فى ترك الخوض، والانكفاف عن التأويل، ولم يستنكف عن إعلان ذلك بكل صراحة وجلاء. وهو ما ذكره فى (الرسالة النظامية فى الأركان الإسلامية) [١].

قال إمام الحرمين:

اختلفت مسالك العلماء فى الظواهر التى وردت فى الكتاب والسنة، وامتنع على أهل الحق فحواها، وإجراؤها على موجب ما يبرزه أفهام أرباب اللسان فيها.

فرأى بعضهم تأويلها، والتزام ذلك فى القرآن، وما يصح من السنن، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى. والذى نرتضيه رأيًا، وندين الله به عقدًا:

---

(١) طبعت فى القاهرة بتحقيق المحدث الفقيه الحنفى المعروف الشيخ محمد زاهد الكوثرى. وقد طبعت تحت عنوان (العقيدة النظامية) ويبدو أن الذى طبع منها فقط هو جانب العقيدة، وهو ما وجد منها، إذ لم يعثر على باقيها إلى الآن.

اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع، وترك الابتداع. والدليل السمعى القاطع فى ذلك: أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة، وقد درج صحب الرسول ﷺ على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام المستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً فى ضبط قواعد الملة، والتواصى بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً؛ لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، فإذا تصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل؛ كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع، فحق على ذى الدين، أن يعتقد تنزه البارى عن صفات المحدثين، ولا يخوض فى تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب.

وعند إمام القراء وسيدهم الوقف على قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٧] من العزائم، ثم الابتداء بقوله: ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾، ومما استحسن من إمام دار الهجرة مالك بن أنس أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ فقال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عنه بدعة.

فليجر آية الاستواء والمجيء [1] وقوله: ﴿ **لما خلقتُ بيديَّ** ﴾ [ص: ٧٥]. ﴿ **ويبقىٰ وجهُ ربِّك** ﴾ [الرحمن: ٢٧]. و﴿ **تجري بأعْيننا** ﴾ [القمر: ١٤]. وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره، على ما ذكرناه، فهذا بيان ما يجب لله [2].

ونقل الحافظ الذهبى عن الفقيه غانم الموشيلى قال: سمعت الإمام أبا المعالى يقول: لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام [3].

وقال الذهبى: قال الحافظ محمد بن طاهر: سمعت أبا الحسن القيروانى الأديب - وكان يختلف إلى درس الأستاذ أبى المعالى فى الكلام - فقال: سمعت أبا المعالى اليوم يقول: يا أصحابنا: لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى ما بلغ، ما اشتغلت به [4].

---

(١) آية المجى قوله تعالى: ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** ﴾ [الفجر: ٢٢].

(٢) العقيدة: النظامية ص ٢٣، ٢٤. وقد نقل هذا النص الذهبى فى (الأعلام) جـ ١٨ / ٤٧٣، ٤٧٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٨ / ٤٧٣.

(٤) أعلام النبلاء: ١٨ / ٤٧٤ والمنتظم: ٩ / ١٩، وطبقات السبكى: ٥ / ١٨٦.

وقد علق السبكى على هذا القول فقال: يشبه أن تكون هذه الحكاية مكذوبة على إمام الحرمين، وابن طاهر عنده تحامل على إمام الحرمين، والقيروانى المشار إليه: رجل مجهول.

ولكن يعكر على هذا ما نقله الموشيلى عنه، ولم يتعقبه السبكى، ثم الأقوال الأخرى لإمام الحرمين فى رجوعه إلى طريق السلف: تؤكد صحة هذه الرواية. كما أن روايات الحفاظ لا تسقط بمثل التهم التى ذكرها السبكى، وأى تحامل على إمام الحرمين فى هذه الرواية؟ بل فيها ما يرفع من قدره.

وحكى الفقيه أبو عبد الله الحسن بن العباس الرستمى قال: حكى لنا أبو الفتح الطبرى الفقيه قال: دخلت على أبى المعالى فى مرضه، فقال: اشهدوا على أنى قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة، وأنى أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور [1].

وقد أقر السبكى هذه الرواية، ولم يعترض عليها.

---

(١) أعلام النبلاء: ١٨ / ٤٧٤ وطبقات السبكى: ٥ / ١٩١.

قال الذهبى.

وقرأت بخط أبى جعفر (محمد بن أبى على): سمعت أبا المعالى يقول: قرأت خمسين ألفا فى خمسين ألفا، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصت فى الذى نهى أهل الإسلام عنه، كل ذلك فى طلب الحق، وكنت أهرب فى سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركنى الحق بلطيف بره، فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمرى عند الرحيل على كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، فالويل لابن الجوينى [1]! يعنى: نفسه.

يقصد بالذى نهى عنه أهل الإسلام: علم الكلام، فقد نهى عنه إمامه الشافعى، ونهى عنه مالك وأحمد، وغيرهما من الأئمة.

ويبدو أنه تأول كلام أهل الإسلام أنهم نهوا من

---

(١) الخبر فى (المنتظم) لابن الجوزى: ٩/١٩، (طبقات الشافعية) للسبكى: ٥/٥٨٥.

يخاف عليه السباحة فى هذا البحر الخضم، ويخشى عليه من الغرق، وهو يرى نفسه أقوى من ذلك.

كما قصد بتخلية أهل الإسلام وعلومهم الظاهرة: أنه دخل فى العلوم العقلية والفلسفية، وتغلغل فيها، ولم يشتغل بالعلوم النقلية من الحديث والآثار ونحوها، كما اشتغل بها غيره.

وهذا القول من هذا الإمام الكبير الذى أنفق عمره فى هذا اللون من الثقافة العقلية التى امتنزجت بفلسفة اليونان وجدلياتهم، التى لا تنقع غليلا، ولا تهدى سبيلا .. هذا القول يؤكد أن لا طريق أهدى ولا أجدى من طريقة القرآن فى تأسيس العقيدة، وهى الأقرب إلى الفطرة، والألصق بالعقل والوجدان، وهو ما كان عليه الصحابة وتابعوهم بإحسان. وإنما يستفاد من (علم الكلام) فى الدفاع عن العقيدة فى مواجهة المخالفين من أصحاب الأديان والفلسفات الأخرى، والفرق المبتدعة.

وهو ما وضحه من بعد، تلميذه حجة الإسلام الغزالى، حين بين أن علم الكلام: علم محدث أريد به حراسة عقائد العوام من تشويش المبتدعة.

وقال فى (الإحياء): اعلم أن حاصل ما يستمل عليه علم الكلام من الأدلة التى ينتفع بها، فالقرآن والأخبار (أى الأحاديث) مشتملة عليه. وما خرج عنهما، فهو إما مجادلة مذمومة، وهى من البدع ... وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل المقالات التى أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع، وتمجها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين، ولم يكن شئ منه مألوفا فى العصر الأول، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع، ولكن تغير الآن حكمه، إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة، ونبتت جماعة لفقوا لها شبها، ورتبوا فيها كلاما مؤلفا، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذونا فيه، بل صار من فروض الكفايات. وهو القدر الذى يقابل به المبتدع، إذا قصد الدعوة إلى البدعة، وذلك إلى حد محدود)[1].

فلا غرو أن يروى عن إمام الحرمين ما روى من البراءة من (علم الكلام) والعودة إلى طريقة القرآن.

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ / ٢٢، ٢٣ طبعة دار المعرفة - بيروت.

وقد اجتهد العلامة تاج الدين السبكى فى طبقاته الكبرى: أن ينحو بهذا الكلام الجلى الواضح من إمام الحرمين منحى آخر غير ما يتبادر منه،، دفاعا منه عن (علم الكلام) الموروث، ووجه كلمات هذا الإمام العظيم الشجاع المخلص، إلى معان متكلفة لا ينشرح لها الصدر.

وتحامل السبكى على شيخه الإمام الذهبى تحاملا لا يقبل من مثله فى مثله. فالواقع أنى ما رأيت مؤرخا منصفا مثل الذهبى، حتى مع أعلام المعتزلة وأمثالهم.

على أن إمام الحرمين ليس هو وحده الذى انتهى إلى رفض التأويل، وترجيح مذهب السلف، وتفويض حقائق هذه الألفاظ ومعانيها إلى الله تعالى.

فقد رجع من قبله شيخه أبو الحسن الأشعرى فى كتابه (الإبانة) وفى (رسالته إلى أهل الثغر) وغيرهما. ورجع من بعده تلميذه حجة الإسلام أبو حامد الغزالى، وذلك فى كتابه: (إلجام العوام عن علم الكلام).

ولكن موقف شيخه إمام الحرمين كان أصرح وأوضح، فإن الغزالى اعتبر علم الكلام شأن الخواص، وجمهرة العلماء من الفقهاء والمفسرين والمحدثين

والمتكلمين، وغيرهم يعتبرون من العوام فى هذا الأمر عند الغزالى.

أما الخواص، فقد يوجد فى كل عصر منهم واحد، أو اثنان.

ورجع بعد ذلك: الفخر الرازى الذى كان من أكبر المحامين المدافعين عن التأويل، وصنف فيه أكثر من كتاب، مثل (تأسيس التقديس) وغيره. ثم قال فى الطور الأخير من حياته العلمية:

(لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفى عليلا، ولا تروى غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن: اقرأ فى الإثبات: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه: ٥]. ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ [فاطر: ١٠] وأقرأ فى النفى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١] ومن جرب مثل تجربتى، عرف مثل معرفتى)![1].

وجاء فى (طبقات الشافعية) لابن قاضى شهبة: ٢/ ٨٢ ما نصه: قال ابن الصلاح: أخبرنى القطب

---

(١) سير النبلاء: ٢١/ ٥٠٠.

الطوغانى مرتين: أنه سمع فخر الدين الرازى يقول: ياليتنى لم أشتغل بعلم الكلام، وبكى [١].

قال الإمام الشوكانى فى (إرشاد الفحول):

وهؤلاء الثلاثة، أعنى: الجوينى والغزالى والرازى، هم الذين وسعوا دائرة التأويل، وطولوا ذيوله، وقد رجعوا آخرا إلى مذهب السلف، كما عرفت، فلله الحمد، كما هو أهله [٢].

على أن إمام الحرمين لم يكتف بالرجوع إلى مذهب السلف نظريا، بل حث الأئمة والمسؤولين عن قيادة الأمة - والمحافظة على الدين أول واجباتهم - أن يجعلوا مذهب السلف ونهجهم فى تعلم التوحيد هو ما ينبغى أن يعلم للكافة.

أكد فى (الغياثى): أن الذى يحرص الإمام عليه: جمع عامة الخلق على مذهب السلف السابقين، قبل أن

---

(١) ذكر ذلك الشيخ شعيب الأرناؤوط فى مقدمته لكتاب (أقاويل الثقات) ص ٢٢ ط مؤسسة الرسالة.

(٢) إرشاد الفحول ٢ / ٤٩ بتحقيق د. شعبان محمد إسماعيل.

نبغت الأهواء، وزاغت الآراء: وكانوا رضى الله عنهم ينهون عن التعرض للغوامض، والتعمق فى المشكلات، والإمعان فى ملابسة المعضلات، والاعتناء بجمع الشبهات، وتكلف الأجوبة عما لم يقع من السؤالات، ويرون صرف العناية إلى الاستحثاث على البر والتقوى، وكف الأذى، والقيام بالطاعة حسب الاستطاعة، وما كانوا ينكفّون – رضى الله عنهم – عما تعرض له المتأخرون عن عىّ وحصَر، وتبلد فى القرائح. هيهات!

فقد كانوا أذكى الخلائق أذهانا، وأرجحهم بيانا، ولكنهم استيقنوا أن اقتحام الشبهات، داعية الغوايات، وسبب الضلالات، فكانوا يحاذرون فى حق عامة المسلمين ما هم الآن به مبتلَوْن، وإليه مدفوعون، فإن أمكن حمل العوام على ذلك فهو الأسلم)[1].

ونعم ما أوصى به هذا الإمام:

فكل خير فى اتباع من سلف

وكل شر فى ابتداع من خلف

---

(١) انظر: الغياثى: فقرة (٢٨٠) بتحقيق د/عبد العظيم الديب.

٤ - إمام الحرمين وعلم الحديث

عرف إمام الحرمين بالتقدم والإمامة فى عدد من العلوم الإسلامية: مثل أصول الدين، وأصول الفقه، والفقه، والخلاف، ولكن لم يكن له قدم راسخة فى الحديث وعلومه وسبحان من وزع المواهب.

وقد عبر عن هذا الجانب مؤرخو الإمام والمعقبون عليه، بعبارات مختلفة، مغزاها كلها: أنه لم يكن من أهل هذا الشأن.

قال ذلك السمعانى فى (أنسابه): كان قليل الرواية للحديث معرضاً عنه (١).

وقال ياقوت فى (معجم البلدان) نفس ما قاله السمعانى (٢).

وقال الحافظ ابن حجر فى (التلخيص) فى تعليقه على ما قاله إمام الحرمين حول ثبوت الطمأنينة فى الاعتدال: وهو من المواضع العجيبة التى تقضى على هذا الإمام بأنه كان قليل المراجعة لكتب الحديث المشهورة،

---

(١) الأنساب: ٣/٣٨٦. (٢) معجم البلدان: ٢/١٩٣.

فضلا عن غيرها، فإن ذكر الطمأنينة فى الجلوس ثابت فى الصحيحين [١].

وقال نحوه من قبله ابن الصلاح فى (الفتاوى الحديثية) وهو - كابن حجر - من الشافعية المرموقين.

ولعل أشد العبارات فى ذلك هى عبارة الإمام الذهبى فى (أعلام النبلاء) حيث قال: « كان هذا الإمام، مع فرط ذكائه، وإمامته فى الفروع وأصول المذهب، وقوة مناظرته: لا يدرى الحديث، كما يليق به، لامتنا ولا إسنادا. ذكر فى كتاب (البرهان) حديث معاذ فى القياس، فقال: هذا مدون فى الصحاح، متفق على صحته. قلت - والقائل الذهبى - : بل مداره على الحارث بن عمرو، وفيه جهالة، عن رجال من أهل حمص عن معاذ، فإسناده صالح [٢]. أ.هـ.

وقد أغضبت هذه العبارة أخانا الدكتور عبد العظيم الديب، محقق كتب الإمام - كما فى مقدمة تحقيقه لـ (الدرة المضية) لإمام الحرمين -، كما أغضبت من قبله العلامة تاج الدين السبكى فى طبقاته الكبرى.

---

(١) تلخيص الحبير: ١ / ٢٥٦، ٢٥٧ بتعليق عبد الله هاشم اليمانى.

(٢) أعلام النبلاء: ١٨ / ٤٧١، ٤٧٢.

والعبارة فيها شدة ولا ريب، ولكن لا إلى الحد الذى أغضب الشيخ السبكى والدكتور الديب، فقد قيد الذهبى قوله بأنه «لا يدرى الحديث كما يليق به» سواء كان هذا الضمير للحديث أم للإمام نفسه، أى لا يدريه على الوجه اللائق بهذا العلم أو بهذا الإمام. وهذا حق لا أحسب أن إمام الحرمين نفسه ينكره. وقوله عن حديث معاذ ما قال لا يتفق مع ما قرره أهل الحديث إلا بتأويل وتكلف. وقد رأيناه فى كثير من الأحيان يستدل بأحاديث ضعيفة، بل شديدة الضعف، حتى فى الأصول[1]، وأحاديث لا يعرفها المحدثون أنفسهم، وقد يعزو الحديث إلى غير من أخرجه، أو إلى غير صحابيه ... إلى آخره.

وفى رأيى: أن الرجل غنى عن هذا كله، فهو - بلا

---

(١) كاستدلاله بحديث (أصحابى كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم) البرهان: فقرة (١٥٤٨) وقد ضعفه ابن حزم وابن عبد البر وغيرهما، وقال الألبانى فى سلسلة (الضعيفة) رقم (٥٨): موضوع. واستدلاله بحديث «اختلاف أمتى رحمة» الغياثى (٢٧٧) والحديث لم يعرف له سند. وقد افترض إمام الحرمين فى (الغياثى) اندراس الشريعة، وانقراض حملتها تماما، وبنى على ذلك أحكاما، وهو مخالف لأحاديث (بقاء الطائفة المنصورة) التى صحت واشتهرت واستفاضت عن عدد من الصحابة، وربما تواترت.

نزاع – ليس من المدرسة الحديثية النقلية، بل هو من المدرسة التى تجمع بين العقل والنقل، وكلامه نفسه رضي الله عنه يدل على هذا بوضوح وصراحة. وقد رد هو والباقلانى من قبله والغزالى من بعده: حديث «لأزيدن على السبعين» فى الاستغفار لابن أبى، وهو متفق عليه، لاعتقادهم أنه ينافى الفهم الصحيح لآية ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ [التوبة: ٨٠] (١).

لنقرأ له هذه العبارة فى (البرهان) يقول:

وهو يناقش تحمل الرواية وجهة تلقيها: «ولو عرض ما ذكرناه على جملة المحدثين لأبوه ... وهم عصبة لا مبالاة بهم فى حقائق الأصول، وإذا نظر الناظر فى تفاصيل هذه المسائل صادفها خارجة فى الرد والقبول على ظهور الثقة وانخرامها وهذا هو المعتمد الأصولى، فإذا صادفناه لزمناه، وتركنا وراءه المحدثين يتقطعون فى وضع ألقاب، وترتيب أبواب (٢)».

---

(١) انظر: الحديث رقم (٤٦٧٢) من البخارى مع الفتح ج٨/ص ٣٣٧، ٣٣٨.

(٢) البرهان: ج١ فقره (٥٩٢) وفقرة (٥٩٣).

فهذه نظرته إلى (المحدثين) عصبة لا مبالاة بهم فى حقائق الأصول، وهو لا يعبأ أن يتركهم وراءه يتقطعون فى وضع ألقاب، وترتيب أبواب!

على أن هذا – عدم دراية الحديث كما يليق به – ليس خاصا بإمام الحرمين، بل هو عام فى فحول المدرسة الأشعرية كلها.

فهكذا كان الأشعرى والباقلانى من قبل، وكذلك كان الغزالى والرازى والآمدى وغيرهم من بعد.

وربما أغناه عن العناية بالحديث رجال نذروا أنفسهم لخدمته، وهيأهم الله لذلك، وخصوصا من الشافعية، وكل ميسر لما خلق له.

وقد كان فى عصر إمام الحرمين من هؤلاء أمثال الحافظ المتقن الكبير، أبى بكر البيهقى (ت ٤٥٨ هـ) صاحب (السنن الكبرى) و(معرفة السنن والآثار) و(جامع شعب الإيمان) وغيرها من الموسوعات، والذى قال فيه إمام الحرمين نفسه: (ما من شافعى إلا وللشافعى فى عنقه منة، إلا

البيهقى؛ فإنه له على الشافعى منة، لتصانيفه فى نصرته لمذهبة وأقاويله)[1].

٥ - موقف تلامذة إمام الحرمين عند موته

والمقطع الخامس الذى اعترض عليه السبكى من ترجمة إمام الحرمين فى سير أعلام الذهبى: هو ما علق به على موقف تلاميذه عند موته. وقد كانوا نحو أربعمائة طالب علم.

فقد ذكروا أنهم كسروا منبره (الذى كان يخطب عليه) كما كسروا محابرهم وأقلامهم! وأقاموا حولا، ووضعت المناديل عن الرؤوس عاما، بحيث ما اجترأ أحد

---

(١) الطبقات الكبرى للسبكى: ٤ / ١٠ فى ترجمة البيهقى. وقد وقع للبيهقى مع والد إمام الحرمين الشيخ محمد حادثة معروفة، حين شرع فى تأليف كتاب. (المحيط) الذى عزم فيه ألا يتعبد بالمذهب، وإنما يعتمد على الأحاديث. وأصدر منه ثلاثة أجزاء اطلع عليها البيهقى. وكتب له رسالة يبين له فيها أوهامه وأغلاطه فيما استند إليه من حديث، فشكر له الشيخ وأعرض عن تكميل الكتاب وقد ذكر ذلك الأستاذ السيد أحمد صقر فى مقدمته لكتاب البيهقى فى (مناقب الشافعى). وكذلك د. أحمد بن عطية الغامدى فى مقدمته لكتاب (البيهقى وموقفه من الإلهيات).

على ستر رأسه، وكانت الطلبة يطوفون فى البلد نائحين عليه، مبالغين فى الصياح والجزع!.

قال الذهبى: قلت: هذا كان من زى الأعاجم، لا من فعل العلماء المتبعين [١].

أغضب هذا التعليق التاج السبكى، وقال: قد حار هذا الرجل: ما الذى يؤذى هذا الإمام؟ وهذا لم يفعله الإمام، ولا أوصى به أن يعمل، حتى يكون غضا منه، وإنما حكاه الحاكون، إظهارا لعظمة الإمام عند أهل عصره، وأنه حصل لأهل العلم على كثرتهم - فقد كانوا نحو أربعمائة تلميذ - ما لم يتمالكوا معه الصبر، بل أداهم إلى هذا الفعل. ولا يخفى أنه لو لم تكن المصيبة عندهم بالغة أقصى الغايات، لما وقعوا فى ذلك.

قال: وفى هذا أوضح دلالة لمن وفقه الله على حال هذا الإمام رضى الله عنه، وكيف كان شأنه فيما بين أهل العلم فى ذلك العصر المشحون بالعلماء والزهاد [٢]. أ. هـ.

ترى هل أخطأ الإمام الذهبى فى تعقيبه على فعل

---

(١) سير الأعلام: ١٨/ ٤٧٦. (٢) الطبقات: ٥/ ١٨٤.

هؤلاء الطلبة، وتجاوز حده؟ أو قال ما ينبغى أن يقوله العالم الناصح لله ورسوله وللمسلمين؟

الذى أراه أن الذهبى لم يحد عن الصواب فيما علق به، بل لو لم يفعل لكان ملوما فى نظرى، فإن القارئ العادى الذى يقرأ مثل هذه الأعمال من مثل تحطيم المنابر، وكسر الأقلام والمحابر، وغير ذلك من الصياح والنواح وإظهار الجزع، ومنع تغطية الرؤوس، ونحوها، ربما يظن أنها مشروعة، لأنها صادرة من طلاب العلم الشرعى، ومن تلاميذ أكبر إمام فى وقته، وغالبهم من نوابغ عصرهم، فكانت كلمة الذهبى فى موضعها حقا. ولا سيما أن هذا لم يكن عند وقوع المصيبة فقط، ونقول: إنها أثر الصدمة، بل استمر على ذلك هؤلاء، ومضوا معلنين الحداد، وكشف الرؤوس عاما كاملا.

والذهبى لم يلم إمام الحرمين، بل لام هؤلاء التلاميذ، وكان إنكاره هادئا متزنا. إذ قال: هذا من زى الأعاجم، لا من فعل العلماء المتبعين.

والغريب أن السبكى نقل الكلام بالمعنى فقال: وهذا

من فعل الجاهلية، والذهبى لم يقل ذلك، مع أنه من فعل الجاهلية حقا. بل قال: هذا كان من زى الأعاجم!.

كنت أود للعلامة السبكى أن يكون أكثر عدلا وإنصافا لشيخه الإمام الذهبى، وألا يدخل المعركة الخلافية مع الحنابلة، فى موقفه هذا. ولكن هذا هو شأن البشر. فغفر الله للسبكى وللذهبى ولإمام الحرمين، ولنا معهم أجمعين.

obeikandl.com

بعد هذه الجولة التى جلناها مع الإمامين المؤرخين: الذهبى والسبكى رحمهما الله تعالى، فى ترجمتهما لإمام الحرمين، ومحاولتنا أن نحكم بينهما بالعدل، وقد تبين لنا أن كليهما قد أعطى للرجل حقه، وإن اختلفت زاوية النظر لدى كل منهما، فالذهبى ركز على نهاياته، والسبكى ركز على أواسطه وبداياته، وإنما الأعمال بالخواتيم.

ويسرنى أن أختم هذا البحث باقتباس صفحات من تصديرى لكتاب إمام الحرمين الشهير فى الفقه، والذى أنفق فيه السنوات الأخيرة من عمره، وهو (نهاية المطلب فى دراية المذهب) وقد قام على تحقيقه وخدمته أخى الأستاذ الدكتور عبد العظيم محمود الديب، الذى حقق عدة كتب لإمام الحرمين، انتفع الناس بها فى مشرق ومغرب.

وحسبى أن أضع هنا هذه الفقرات من هذا التصدير كما هى:

● **عبقرية متميزة:**

كان إمام الحرمين عبقرى زمانه – وما بعد زمانه – فى العلوم التى تجمع بين العقل والنقل، وهى: علم الكلام، وأصول الفقه، والفقه، والخلاف.

وربما يظن كثير من الناس أن علم الفقه علم نقلى بحت، وهو كذلك عند الكثيرين، ولكنه – عند إمام الحرمين ومن جرى مجراه – له ارتباط وثيق بالعقل، فى التأصيل والتدليل، والتقرير والتعليل، وربط المسائل بجذورها، ورد الفروع إلى أصولها، وقياس الأشباه بأشباهها، ومراعاة الجوامع والفوارق، ورعاية العلل والمقاصد.

● **الاستقلال فى التفكير والاستقلال فى التعبير:**

تميز إمام الحرمين بالاستقلال فى التفكير، والاستقلال فى التعبير:

فهو فى أصول الدين أشعرى، ولكنه قد يخالف الأشعرى، برغم تعظيمه لقدره، وتقديره لفضله.

وهو فى فروع الفقه شافعى، ولكنه قد يستقل عن الشافعى بمسائل، وينفرد بنظرات، وأفكار واجتهادات فقهية لم يسبق بها أحد.

وهو واضع اللمسات الأولى فى مقاصد الشريعة، حيث أشار إليها فى (البرهان) وتحدث عن المصالح الضرورية والحاجية والتكميلية.

ثم جاء تلميذه الغزالى وصاغها صياغة جديدة متكاملة، ووضع أسس البناء لهذه النظرية التى توسع فيها الشاطبى فيما بعد.

وعبارات إمام الحرمين فى أكثر من كتاب له، بل فى كل ما عرف من كتبه: تدل على أنه شخصية مستقلة الفكر، وإن انتسب إلى الأشعرى اعتقادا، وإلى الشافعى فقها، بل مع تعصبه للشافعى إلى الحد الذى جار على بعض المذاهب الأخرى، وبعض الأئمة مثل أبى حنيفة كما تجلى ذلك فى كتابه (مغيث الخلق فى اختيار الأحق)، وفى حديثه – فى بعض الأحيان عن الإمام مالك، واسترساله فى المصلحة المرسلة.

استمع إليه، وهو يقول فى (الغياثى): (ومعظم

المتلقبين بالتصنيف فى هذا الزمان السخيف، يكتفون بتبويب أبواب، وترتيب كتاب، متضمنة كلام من مضى، وعلوم من تصرم وانقضى)[1].

وفى موضع آخر يقول:

(ولو ذهبت أذكر المقالات وأستقصيها، وأنسبها إلى قائليها .. لخفت خصلتين: إحداهما: خصلة أحاذرها فى مصنفاتى وأتقيها، وتعافها نفسى الأبية وتجتويها، وهى سرد فصل منقول، عن كلام للمتقدمين مقول. وهذا عندى بمنزلة الاختزال والانتحال، والتشيع لعلوم الأوائل، والإغارة على مصنفات الأفاضل !)[2].

فهو إذن يبحث عن الجديد، ويعاف تكرار القديم.

ثم يقول: وحق على كل من تتقاضاه قريحته تأليفا، وجمعا وترصيفا: أن يجعل مضمون كتابه: أمرا لا يلفى فى مجموع، وغرضا لا يصادف فى تصنيف)[3].

---

(١) الغياثى بتحقيق د. الديب: فقرة (٤٥).

(٢) المصدر السابق: فقرة (٢٤٢).

(٣) الغياثى: نفس الفقرة.

وفى مكان آخر من الكتاب نفسه يقول:

(لست أحاذر إثبات حكم لم يدونّه الفقهاء، ولم يتعرض له العلماء؛ فإن معظم مضمون هذا الكتاب لا يلفى مدونًا فى كتاب، ولا مضمنا لباب. ومتى انتهى مساق الكلام إلى أحكام نظمها أقوام، أحلتها أربابها، وعزيتها إلى كتابها. ولكنى لا أبتدع، ولا أخترع شيئا، بل ألاحظ وضع الشرع وأستثير معنى يناسب ما أراه وأتحراه. وهكذا سبيل التصرف فى الوقائع المستجدة، التى لا توجد فيها أجوبة العلماء معدة)[1].

وهذا شائع فى كتبه كلها، وهو يعتد بذلك ويباهى به إلى حد قد تصفه يالعجب أو الغرور، ولكنها - كما قال أخى عبد العظيم - الثقة الكاملة بالنفس. يقول فى (البرهان) معقبا على ما عرض فيه لأنواع الجموع: (ونحن من هذا المنتهى نفرع ذروة فى التحقيق لم يبلغ حضيضها، ونفترع معنى بكرا، هو - على التحقيق - منشأ اختباط الناس فى عماياتهم)[2].

---

(١) الغياثى: فقرة (٣٧٨).

(٢) انظر: البرهان: فقرة (٢٣٤) ج ١/٣٢٨.

ولقد أقر الفقهاء والأصوليون والمتكلمون من بعده بأصالته وتقدمه واستقلاله فى العلم والفكر، فهو نسيج وحده فيما يصنف ويكتب، غير مقلد لأحد قبله.

يقول التاج السبكى فى (طبقاته) عن كتابه (البرهان): اعلم أن هذا الكتاب وضعه الإمام فى أصول الفقه على أسلوب غريب، لم يقتد فيه بأحد، وأنا أسميه (لغز الأمة) لما فيه من مصاعب الأمور، وأنه لا يخلى مسألة عن إشكال، ولا يخرج إلا عن اختيار، يخترعه لنفسه، وتحقيقات يستبد بها، وهذا الكتاب من مفتخرات الشافعية)[1].

فانظر إلى هذه العبارات (لم يقتد فيه بأحد) وقوله: (عن اختيار يخترعه لنفسه، وتحقيقات يستبد بها) مما يدل على أن الرجل من المبدعين، وأصحاب العقول المبتكرة.

وفى موضع آخر يعلق السبكى على ما وصفه بتحامل الإمام المازرى وغيره من علماء المالكية الذين شرحوا (البرهان) مبينا سبب هذا التحامل فى رأيه، فقال:

---

(١) الطبقات الكبرى: ٥/١٩٢.

إنهم يستصعبون مخالفة الإمام أبى الحسن الأشعرى، ويرونها هجنة عظيمة، والإمام – إمام الحرمين – لا يتقيد لا بالأشعرى ولا بالشافعى، لا سيما فى (البرهان)، وإنما يتكلم حسب تأدية نظره واجتهاده، وربما خالف الأشعرى، وأتى بعبارة عالية، على عادة فصاحته، فلا تتحمل المغاربة أن يقال مثلها فى حق الأشعرى.

قال السبكى: وقد حكينا كثيرا من ذلك فى شرحنا على (مختصر ابن الحاجب) (١).

وقد استدل الحافظ السيوطى (ت ٩١١ هـ) فى رسالته (الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض) بعبارة السبكى هذه: أن إمام الحرمين لا يتقيد بالأشعرى ولا بالشافعى، وإنما يتكلم حسب ما يؤديه إليه نظره واجتهاده: أن هذا الإمام قد استقل بالاجتهاد، وتحرر من التقليد (٢).

ونقل عن ابن المنيّر أنه قال فى حق إمام الحرمين: له علو همة إلى مساواة المجتهدين.

---

(١) الطبقات: ٥/١٩٢.

(٢) الرد على من أخلد إلى الأرض ص ١٩٤ تحقيق د. فؤاد عبد المنعم.

ووصفه الحافظ القزوينى بأنه: المجتهد ابن المجتهد [1].

ومما يؤكد ذلك: ما ذكره الدكتور الديب فى تحقيقه للبرهان من جملة فهارس لها دلالتها وأهميتها فى آخر الكتاب، ومنها ثلاثة فهارس ننبه عليها هنا:

١ - فهرس المسائل التى خالف فيها إمام الحرمين الشافعى، وقد أحصاها، فكانت أربعا وعشرين مسألة.

٢ - فهرس المسائل التى خالف فيها إمام الحرمين الأشعرى، وقد حصرها فى ثلاث مسائل.

٣ - فهرس المسائل التى خالف فيها إمام الحرمين القاضى أبا بكر الباقلانى، وهو الرجل الثانى بعد الأشعرى، وقد أحصاها، فكانت إحدى وأربعين (٤١) مسألة [2].

وهو يتحدث عن الإمام الأشعرى بكل احترام وتقدير، ولكن لا يمنعه هذا أن يقول فى بعض المسائل: ورأى الأشعرى مختبط فى هذه المسألة! وكيف لا وقد علق

---

(١) نفسه.

(٢) انظر: هذه الفهارس فى أواخر الجزء الثانى من (البرهان) ص ١٤٤٣ - ١٤٤٩.

على قوله لوالده، الإمام المعروف فقال: وهذه زلة من الشيخ رحمه الله! (١).

وأما استقلاله فى (التعبير) فهو ظاهرة ملحوظة فى كل ما يكتب، فمعجمه اللغوى رحب، ومفرداته كثيرة، وهو ينتقى منها ويتأنق فيها، إلى حد الإغراب فى بعض الأحيان، ولا يكاد يستخدم عبارات من قبله، وكثيرا ما يلتزم السجع، كما هو نمط عصره، وأغلبه مستساغ، وقليل منه متكلف، وقد رأيناه يلتزم السجع فى بعض كتبه مثل (غياث الأمم) فهو مسجوع من أوله إلى آخره، إلا ما ندر. وأحيانا أخرى يتحرر من السجع، ويمضى مسترسلا، ككبار البلغاء. قال ابن خلكان: ورزق من التوسع فى العبارة ما لم يعهد من غيره (٢).

● **عقل كبير وقلب كبير:**

وكما تميز الإمام الجوينى بعقله الكبير، تميز بقلبه الكبير، فقد اتفق مؤرخوه أن الرجل كان من (أصحاب

---

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد: ٣/ ٣٦٠.
(٢) وفيات الأعيان: ٣/ ١٦٨.

القلوب) الذين لهم مع الله تعالى حال ومقام، وكان إذا ذكر الناس فى مجلسه بكى وأبكى الحاضرين.

وهذا مع أن الذين يشتغلون بالقضايا العقلية، والمجادلات الكلامية، يصابون بجفاف الروح. وقسوة القلوب، إلا من رحم ربك، من القلائل الذين احتفظوا بقلوبهم حية لم تمت، سليمة لم تسقم، صافية لم تشب، ومنهم إمام الحرمين. قد قال هو رحمه الله بحق: من ضرى بالكلام صدى جنانه!

قال مؤرخه عبد الغافر الفارسى: كان من رقة القلب بحيث يبكى إذا سمع بيتا، أو تفكر فى نفسه ساعة. وإذا شرع فى حكاية الأحوال، وخاض فى علوم الصوفية فى فصول مجالسه بالغدوات: أبكى الحاضرين ببكائه، وقطر الدماء من الجفون بزعقاته ونعراته وإشاراته، لاحتراقه فى نفسه، وتحققه بما يجرى من دقائق الأسرار. (١) أ. هـ.

وقد تجلّى ذلك فى خُلقه وسلوكه مع من حوله، ومن ذلك خلق التواضع، فقد ذكروا أنه كان من التواضع لكل أحد بمحل يتخيل منه الاستهزاء، لمبالغته فيه.

---

(١) الطبقات الكبرى: ٥ / ١٨٠.

ومن حميد سيرته: أنه ما كان يستصغر أحدا حتى يسمع كلامه، شاديا كان أو متناهيا .. صغيرا كان أو كبيرا، ولا يستنكف أن يعزى الفائدة المستفادة إلى قائلها، ويقول: إن هذه الفائدة مما استفدته من فلان.

وإذا لم يرض كلام أحد زيّفه، ولو كان أباه أو أحد الأئمة المشهورين (١).

فهذا كله ينطق بأن هذا الإمام قد رزق من نقاء القلب ما رزق من ذكاء العقل، والله يختص بفضله من يشاء.

● **كلمة عتاب لإمام الحرمين:**

هذا هو إمام الحرمين: قمة فى فكره وفقهه، قمة فى إنتاجه وعطائه، قمة فى مكارمه وفضله، قمة فى غيرته على دينه ودفاعه عنه، ومع هذا، فالكمال لله تعالى وحده، والعصمة لرسوله ﷺ.

وكم كنت أتمنى لهذا الإمام الكبير ألا يبالغ فى مدح نظام الملك، كما هو ظاهر فى أكثر من موضع فى كتابه

---

(١) المرجع السابق، وانظر: شذرات الذهب: ٣/ ٣٦٠.

(الغياثى) وفى مقدمته خاصة، حين قال فى قصيدة له يمدحه بها:

وما أنا إلا دوحة قد غرستها
وسقيتها، حتى تمادى بها المدى
فلما اقشعر العود منها وصوحت
أتتك بأغصان لها تطلب الندى

وقد قال التاج السبكى: إنه وجد بخطه رضى الله عنه فى خطبته للغياثى – وهو عنده بخطه – أنه قد ضرب على البيتين الأخيرين، قال السبكى: وسررت بذلك، فإنى سمعت شيخ الإسلام – يعنى والده التقى السبكى – رحمه الله يحكى عن شيخنا أبى حيان: أنه كان يتعاظمهما، ويقول: كيف يرضى الإمام أن يخاطب النظام بهذا الخطاب؟! ثم يذم الدنيا التى تحوج مثل الإمام إلى مثل ذلك! (١)

وما يدرينا لعل نيته فى ذلك خير ينشده للدين أو للمسلمين، وإنما لكل امرئ ما نوى، أو لعلها لحظة ضعف

---

(١) الطبقات: ٥/٢٠٩.

مما يعترى البشر، استدركها الإمام على نفسه، وإنما استعظمت منه لأنه عظيم حقا.

كما كنت أود ألا يغلو فى نقده للمذهب الحنفى، إلى حد العنف الجارح، الذى لا يليق من أهل العلم بعضهم لبعض، كما بدا ذلك فى كتابه (مغيث الخلق فى اختيار الأحق) وقد أنكر بعضهم نسبة الكتاب إليه، ولعل أخى عبد العظيم منهم، وكم أتمنى أن يصح ذلك. ولكن وجدت فى أواخر (البرهان) [1] ما يؤيد بعض ما فى الكتاب. كما أن المؤرخين من بعده نسبوا الكتاب إليه.

وكذلك لم أكن أحب له أن يشتد فى نقد إمام دار الهجرة مالك بن أنس، لأمور لم تثبت عنه، كالقول بقتل الثلث لإبقاء الثلثين، ونحو ذلك - وإن كان فى بعض الأحيان قيدها بقوله: إذا صح ذلك عنه، وهذا هو الواجب.

وأيضا لم أكن أود من رجل كبير مثله أن يتحدث

---

(١) البرهان: فقرة (١٥٥٣) ص ١٣٦٤، ١٣٦٥ من الجزء الثانى.

عن معاصره قاضي القضاه أبى الحسن الماوردى (ت ٤٥٠) بمثل تلك اللهجة الساخرة المهينة [١]، التى نفى بعض الناس أن يكون الماوردى هو المقصود بها، حتى قال المحقق الكبير الشيخ السيد أحمد صقر رحمه الله فى حديث مع الدكتور الديب: أجنّ إمام الحرمين حتى يقصد بذلك الإمام الماوردى؟! ولكن الدلائل كلها تقطع بأنه الماوردى، وهو ما أكده الدكتور الديب.

ويبدو أن هذا الإمام الفذ – مع عقله الكبير – كان حار العاطفة، حاد المزاج فلا يبعد أن تغلبه – مثل كثير من العظماء – حدة الطبع، فتدفعه إلى المبالغة فى المدح إذا مدح، وإلى الإسراف فى النقد إذا نقد، وهذا يؤكد أن الإنسان هو الإنسان، وإن بلغ فى العلم والفضل ما بلغ. وقد قال الشاعر قديما:

من ذا الذى ما ساء قط، ومن له الحسنى فقط؟!

ومهما يكن الأمر، فحسنات الرجل أكثر، وفضائله

---

(١) انظر: الفقرة (٤٣٢) من البرهان ج١ / ٣٠١، ٣٠٣. وانظر ما قاله عنه فى (الغياثى) فقرات: (٢٠٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٤٣٢).

أغزر، ومكارمه أكبر، والله أعلم بالسرائر، وفى الحديث الذى استدل به الشافعية: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث» (١) وفى رواية: «لم ينجسه شئ» (٢) فكيف إذا كان بحرا زاخرا؟ غفر الله لإمام الحرمين وجزاه خيراً عما قدم لدينه وأمته.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم وغيرهم عن ابن عمر. وذكره فى صحيح الجامع الصحيح (٤١٦).

(٢) رواه ابن ماجه عن ابن عمر. المصدر السابق (٤١٧).

الفهـــرس

الموضـوع	الصفحة
مقدمـــة	٣
ترجمة إمام الحرمين بين الحافظين الذهبى والسُّبكى	٩
ترجمة الذهبى لإمام الحرمين	١١
ترجمة السبكى لإمام الحرمين	١٤
مؤاخذات السُّبكى على الذهبى	١٩
١ – حول علم الله تعالى بالجزئيات	١٩
٢ – سؤال الهمذانى وجواب الإمام	٢٨
٣ – رجوعه عن التأويل وعلم الكلام	٣٣
٤ – إمام الحرمين وعلم الحديث	٤٨
٥ – موقف تلامذة إمام الحرمين عند موته	٥٣
خاتمـــة	٥٧
● عبقرية متميزة	٥٨
● الاستقلال فى التفكير والاستقلال فى التعبير	٥٨
● عقل كبير وقلب كبير	٦٥
● كلمة عتاب لإمام الحرمين	٦٧
الفهـــرس	٧٢

رقم الإيداع ٢٠٠٠/٧٤٣٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N

977-225-146-9

obeikandl.com